

التحرير والتنوير

ومعنى (إذا قضى الله ورسوله) إذا عزم أمره ولم يجعل للمأمور خيارا في الامتثال فهذا الأمر هو الذي يجب على المؤمنين امتثاله احترازا من نحو قوله للذين وجدهم يأبرون نخلمهم : " لو تركتموها لصلحت ثم قالوا : تركناها فلم تصلح فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم " . ومن نحو ما تقدم في أول السورة من همه بمصالحة الأحزاب على نصف ثمر المدينة ثم رجوعه عن ذلك لما استشار السعديين ومن نحو أمره يوم بدر بالنزول بأدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن النذر : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فتملأه ماء فنشرب ولا يشربوا . فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي فانهض بالناس . وفي الحديث " أن النبي A كان في سفر وكان صائما فلما غربت الشمس قال لبلال : انزل فاجد لنا فقال يا رسول الله ﷺ لو أمسيت . ثم قال : انزل فاجد لنا فقال : يا رسول الله ﷺ لو أمسيت إن عليك نهارا ثم قال : انزل فاجد فنزل فجدح له في الثالثة فشرب " . فمراجعة بلال رسول الله ﷺ من أجل أنه علم أن الأمر غير عزم .

وذكر اسم الجلالة هنا للإيماء إلى أن طاعة الرسول E طاعة الله قال تعالى (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) . فالمقصود إذا قضى رسول الله ﷺ أمرا كما تقدم في قوله تعالى (فإن الله خمسهم وللرسول) في سورة الأنفال إذ المقصود : فإن للرسول خمسهم . والخيرة : اسم مصدر تخير كالطيرة اسم مصدر تطير . قيل ولم يسمع في هذا الوزن غيرهما وتقدم في قوله تعالى (ما كان لهم الخيرة) في سورة القصص . و (من) تبعيضية . و (أمرهم) بمعنى شأنهم وهو جنس أي أمورهم . والمعنى : ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعين عليهم اتباع ما قضى الله ﷻ ورسوله A فلا خيرة لهم .

فلذلك والمؤمنات المؤمنین جميع يعمان النفي حيز في وقعا لما (ومؤمنة مؤمن) و A E جاء ضميرها ضمير جمع لأن المعنى : ما كان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كما هو شأن العموم .

وقرأ الجمهور (أن تكون) بمثناة فوقية لأن فاعله مؤنث لفظا . وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام وابن عمر بتحتية لأن الفاعل المؤنث غير الحقيقي يجوز في فعله التذكير ولا سيما إذا وقع الفصل بين الفعل وفاعله .

وقوله (ومن يعص اﷻ ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً) تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول

. المخالفة في لهوى عمد عن كان أم الخيرة فيه هو فيما سواء E

(وإذ تقول للذي أنعم اﷻ عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق اﷻ وتخفي في نفسك ما اﷻ مبديه وتخشى الناس واﷻ أحق أن تخشيه) و (إذ) اسم زمان مفعول لفعل محذوف تقديره : اذكر وله نظائر كثيرة . وهو من الذكر بضم الذا الذي هو بمعنى التذكر فلم يأمره اﷻ بأن يذكر ذلك للناس إذ لا جدوى في ذلك لكنه ذكر رسول اﷻ A ليرتب عليه قوله (وتخفي في نفسك ما اﷻ مبديه) . والمقصود بهذا الاعتبار بتقدير اﷻ الأسباب لمسبباتها لتحقيق مراده سبحانه ولذلك قال عقبه : (فلما قضى زيدا منها وطرا زوجناكها) إلى قوله (وكان أمر اﷻ مفعولا) وقوله (وكان أمر اﷻ قدرا مقدورا) .

وهذا مبدأ المقصود من الانتقال إلى حكم إبطال التبني ودحض ما بناه المنافقون على أساسه الباطل بناء على كفر المنافقين الذين غمزوا مغامر في قضية تزوج رسول اﷻ A زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا : تزوج حليمة ابنه وقد نهى عن تزوج حلائل الأبناء . ولذلك ختمت هذه القصة وتوابعها بالثناء على المؤمنين بقوله (هو الذي يصلي عليكم) الآية . وبالإعراض عن المشركين والمنافقين وعن أذاهم